"وطني دائماً على حق"

لما أطلق الرئيس فرنجيه رحمه الله شعاره الكبير: "وطني دائماً على حق" قلت في نفسي: لا يجوز الانحياز الى الوطن اذ قد يكون ظالماً لاوطان اخرى حتى ادركت قدرتنا على فهم هذا الشعار بصورة لا تؤذي الآخرين. بالتأكيد لم يرد الرئيس سليمان فرنجيه ان الدولة دائماً على حق اذ كان يعرف، رحمه الله، ان الدولة بشر وكان هو يعرف حدوده وحدود معاونيه وربما فهم ان رئيساً شهماً وشجاعاً وعفيفاً قادر على ان يلهب من حوله ببعض من فضائل يستقيم بها الحكم. الدولة اذاً ليست البلد وقد تقومه حسبما أوتي أركانها من مواهب او تعوجه اذا ما حرمت المواهب.

يصح شعار رئيسنا الراحل اذا اعتبرنا ان الوطن لا قوام له اذا عادى اوطاناً اخرى لانه، اذ ذاك، يفقد ماهيته او تاريخه او اطلالته. واذا كان الوطن مجباً لصالحه اي صالح ابنائه يعجز عن ان يكون جارحاً لبلد آخر او منقضاً عليه وتالياً يصبح ناقضاً لذاته. ان تقول بأعمق المعاني: "وطني دائماً على حق" هو ان تعني انه يجند كل قواه نحو الاحسن والاجمل والاقوم وهو ان تعني انك تبدأ باصلاح العالم كله بدءاً من وجودك والوجود متحرك بالخير ويبتغي الدوام على الخير والا كان مهدوراً. وهدر حسبما ورد في لسان العرب ما يبطل من دم وغيره. وفي الصحاح: ضربه فهدرت رئته تهدر هدوراً اي سقطت. وحكامنا هم الذين استعملوا جذر هدر ليتكلموا على زوال بعض من دخل الوزارات غير منتبهين إلى ان في الامر إثما يؤدب الآثم من أجله ولكن ليس في هذه الدولة من يؤدب الأثيم ليكون الوطن على حق ضد اعدائه من بنيه.

غير اني لست معالجاً لفالج الحكم ولم يبق لي ذلك الصبر لنقده اذ لبنان أبقى ولو لم تحمه دولة قادرة او فالج حكم أمسى غاية لنفسه لا وسيلة للخدمة. فنمشي نحن الفقراء والشعراء الحالمين بقوة لبنان وما فيه من قدرة على الحب. وبسبب من طاقتنا على الحب لست يائساً من ان يعي الحاكم المسؤولية اي ان يتوب الى البلد وحاجاته لئلا يهدر رجاؤه بعد هدر الاموال في دوائر الدولة. فعلى رغم حزننا على المجرى السياسي لنا ان نفرح بأصحاب المواهب والعقل وهم كثر بيننا. قد يخافون من كم افواههم وهذا ظلم يلحق بالوطن ولكن لنا رجاء للآتيات من ايام هذه السنة الجديدة. لبنان فيه ذكاء كبير وارجو ان تأتي حسناتنا الروحية كثيرة، عميقة لتغذي الذكاء. كل شعب له خطاياه ولكن حتى يكون وطنك دائماً على حق لا تستطيع ان تتخلى عن اية فضيلة ينزلها الله عليك. قد لا نكون "خير أمة أخرجت للناس" ولكنا نسعى على دروب الخير وعلى دروب الثقافة الواسعة لتخرج من مجتمعنا دولة عظيمة قادرة على ان تغير العالم اذ "اعطينا ان نفهم ان كلا منا قادر على ان يغير العالم ولو لم تكن له أقل أهمية او أقل سلطة" على ما قاله الرئيس التشيكي السابق فاسلاف هافل. على كل لبناني ان يؤمن انه هو بحد نفسه قادر على الاقل على ان يغير ما في نفسه حتى يشع منه بعض من نور.

❀❀❀

وهكذا كله ضمن المستطاع أو هذه – اذا شئتم – عمل النعمة قدرتنا على التحرر الذاتي وفي صورة أدق "ان نكون غير قابلين الهدم وعلى وجه أكثر دقة ان نكون" كما يقول كافكا.

ان تكون هو ان تكون موضوعياً اي واقفاً امام موضوعك بلا انفعال لتقدر على معالجته. لقد أكثر حكام اليوم من استعمال كلمة موضوعي وأكثرت وسائل الاعلام من استعمال المفردة. وقد لا يكون استعمال اللفظة دائماً دليلاً على صدق القول. غير ان الرب اوصانا ألا ندين ولو اوصانا ان نعقل الامور في راهنها لئلا ندان نحن واذا رأينا الامور في راهنها يؤهلنا هذا لمعالجتها بلا تزلف او انحياز او ارضاء لشهواتنا. غير ان هذا يتطلب كثيراً من العفة وتجرداً من ولاء عقدناه لخارج بلدنا او انصارنا او ولاء لعنادنا.

والموضوعية بمعناها البسيط تفترض اننا آثرنا الحق على الباطل والحقيقة على التحذلق والخطابية التي نكثر منها خداعاً للناس ولانفسنا. ولعل انحدار المستوى الخلقي في هذا الفضاء او ذاك من الدولة علمنا نهائياً انك قد تكذب مرة او مرتين ولكنك لا تقدر على ان تكذب الى الأبد وتغش نفسك بأن الناس صدقوك.

لست أعلم كيف لا يؤتى دائماً بالفاهمين والذائقين الخير الى الحكم ليتلاءم وعبقرية هذا الشعب. هل مستحيل ان ترجو حكم الدولة بعباقرة او بموهوبي الروح وساطعي الدماغ ام نحيا في نظام الطلاق بين الموهبية والدولة بحيث يكون اصحاب المواهب ذوي موضوعية واخلاص وطهارة وتتأرجح الدولة بين نزوة ونزوة مرجئة فعلها الى الأقدار أو غير مؤمنة بضرورة فعل.

غير ان قلمي انزلق بعدما وعدتكم بأني لن أكلمكم على الدولة فإنها أتعبتني كما اتعبت سائر الناس. تجددوا إذاً انتم اذ لا بد من ان تثمر الجدة في تفاعلنا المجتمعي ويخصب البلد الفاضلون فيتلألأ ويحيا في غياب الدولة وانعدام ارادتها على التحكم بالمصير. لقد أتى زمان لا نشخص فيه خطابنا الوطني ولا نحابي الوجوه ويكون العلم والحق المتلائمان جسرنا الى الحياة الطيبة.

بدولة مستقيمة، عليمة، محبة، خادمة، كل منا مدعو الى ان يكون نزيهاً أنى حل ليزيد علمه ويقوى عطاؤه. وكل منا يستطيع ان يطهر عائلته ويتطهر في مهنته ويتقنها ويؤديها بلا زغل ولا جهل فيقوم كل يوم من هناته ومن تقصيره الطوعي او الكرهي. لا يعيش بلد بلا ابرار وبلا عالمين. فاذا رضي التفاهة لا يكون دائماً على حق وهذا هو الارث الذي تسلمناه.

دائماً لمست عند العرب في مشرقهم ومغربهم اعجاباً بلبنان وذهولاً امام حضارته. وكنت دائماً اتساءل ان كانوا على حق اذ كنت ألح على ان البلد ينبغي ان يكون افضل. فلا نخيبن العرب لانهم اهلنا ولان علينا واجب خدمة لهم بما نزل علينا من حسنات. ولكن من أعجب بك له عليك الحق في ان تظل على بهائك. قد يتطلب البقاء على هذا المستوى بل رفعه حياة اقتصادية زاهرة لأن العطاء اليوم لن يكون بلا تكنولوجيا عالية تنتجها أنت ولا تستوردها. واذا كانت جارتنا الى الجنوب قادرة على التكنولوجيا فماذا يحول دون ذلك عندنا؟ دائماً يؤلمني قول حكامنا وبعض المحللين ليس عندنا سوى السياحة. نحن قادرون على اشياء كثيرة منها تصنيع الزراعة ومنها التكنولوجيا الصغيرة الدقيقة اذ يأتي السائح او لا يأتي. ولكن يبدو اننا شعب لا يؤمن بنفسه من حيث هو كل متكتل.

لن نكون شعباً واحداً ما لم نكن شعباً آتياً من تطلعاته وليس فقط من ذكرياته. انا لست تبسيطياً لاقول ان الذاكرة التاريخية تفرقنا ولا يمكن ان نقوم بلا تراث، فالمسيحية والاسلام كلاهما تراث اذا عرفت ان تقرأهما جيداً وان يفيد الكل منهما روحياً وثقافياً. ولكني ضد الذكرى التي هي افتخار بانجازات صحيحة او وهمية. وعلى هذا عشنا طويلاً وتفرقنا. ولكني أقول أن المستقبل الذي نريده هو الذي سيصنعنا لان هذا قائم على المسالمة على الابداع اي على الانتاج الذي ينفعنا وننفع به العالم. وهذا يحررنا من الخرافة ويقربنا الى الموضوعية. فما كان لبنان الماضي دائماً على حق ولكن لبنان الآتي.

واذا كنا خلاقين حقا فلا يبقى وقت نلهو فيه بذكريات الماضي وبخاصة لا تبقى لنا حاجة إلى ان نتلهى بطوائفنا من حيث انها مجموعات تتنافس على الحكم او تطمع به. الانسان المبدع والعامل تصبح طائفته له مطرح الهام روحي وخدمة للوطن كله. فكثيراً ما دعا الدعاة الى العف عن استغلال الطائفية. الدعوة لا تكفي. العطاء في دنيا العمل والادب والفن والاقتصاد يأخذك الى عوالم جديدة. الا تلاحظ ان المسلم والمسيحي واحد ومعاً في مجال الانتاج الاقتصادي وانهما معاً في الشعر والموسيقى وان الملهم ملهم والغبي غبي الى اية مجموعة دينية ولد فيها. اما قال الاقدمون في الغرب: "اول الاشياء أن تحيا وثانيهما ان تتفلسف". اذا آمنا بصحة ذلك نقلع عن نمط التفكير الراكد والمتذكر لنصل الى عمل جديد يصنع لنا فكراً جديداً وتالياً وطناً متأصلاً لا بماضيه ولكن براهنه ومستقبله. الوطن يأتي من الموضوع اكثر مما يأتي من الذاتية العاطفية.

اجل لا يحيا الانسان بلا عاطفة ولكنه يأتي من عاطفة يشرف عليها العقل والعقل المرتبط بالوطن من اجل الخدمة. واخشى أن يسبح البلد في عاطفية مائعة وتالياً في الكذب ما لم يرتق اى اعلى ذرى العقل متحرراً من الخرافة. في الدين ينقذك العقل الراجح من الخرافات. ونحن في حاجة الى ان تكون حياتنا الروحية فيها عقل كثير لنعبد الإله الحق غير مقيدين بما نسجته الاهواء حول الدين.

أجل الحياة وجدان. لكن الوجدان ليس فقط ذاتية subjectivité متفلتة وان كان فيه الكثير من الذاتية السليمة. عند المحللين المعاصرين ليس من موضوعية كاملة باردة. وبلا اندفاع داخلي وثقة بقدرتك على الابداع لا تستطيع ان تأتي بشيء موضوعي. انا لا ادعو الى اطفاء الروح او اخماد الشعور ولكني ادعو الى ان تخضع قوى الانسان الى الاتزان ومنه ان ترى ان كل شيء له وزنه وان الاوزان على اختلاف. هناك تناسق بين الموضوعي والذاتي في الفرد وفي الامة في اشراف الحكماء أنفسهم على غير الحكماء. في هذا يكون الانسان السماوي الملتهب حباً والثابت العقل. ولنا في لبنان وربما في المشرق العربي في هذا مساهمة خاصة بعدما جفّ الغرب. نحن لا نتخذ الغرب نموذجاً في جفافه. ولكنا نعتمده نموذجاً في جديته العقلية ونبقى على وجدانيتنا التي كان الدين رافداً فيها كبيراً. ومن هذه الزاوية سنخدم الغرب يوم نعود الى اصالة جاءتنا من الله. لنا ان ندخل الحضارة من الباب الواسع وان نقوم بتجديد ديني يقوم على القلب المحب أولاً وعلى المعرفة ثانياً وليس لنا في هذا ان نخشى أحداً ان كنا صادقين.

واذا بتنا كلنا بشراً جدداً يظهر الوطن الجديد بنا وبما نريده لكل مواطن. هذا الوطن الجميل بابنائه دائماً على حق وترانا الامم الاخرى هكذا بلا حسد اذ نكون قد سلكنا مسلكاً الهياً وتبلورت فينا بشرية صالحة. من بعد هذا او مع هذا تبدو منا دولة ساهرة يضمها الشعب اليه باخلاصها وتضم الشعب اليها بخدمته.

المطران جورج خضر